هاشم الرفاعي.. ثاني الشعراء الذين قتلتهم ثورة يوليو

الأحد 24 يونيو 2018 03:06 م

لا شك في أن الشاعر هاشم الرفاعي (المتوفى 1959) هو أشعر شعراء جيله، ولا يزال بعض بقايا جيله مشاركا في الحياة العامة، مات وهو في عمر الزهور قبيل تخرجه من كلية دار العلوم فصُدم الشعراء والمثقفون والعرب جميعا لوفاته المفاجئة، وكان شعره قد عرف على نطاق عربي واسع كما أنه كان قد وجد فرصة نادرة حين واكب بإبداعه الشعري الفذ موسم الاحتفاليات الشعرية التي انطلقت مع إعلان مصر وسوريا وشهدت تألقه وتألق شعره ونشاطه.

بيد أن الرفاعي بثقافته ونقائه لم يكن من المخدوعين بما يراه ولم يكن من المنشدين التقليديين، وإنما كان مثقفا أصيلا وكان صاحب رؤية وذائقة وفهم ووعي، وقد ترك أكثر من قصيدة عصماء في تقييم عبد الناصر (وأبياتا أخرى يصعب طباعتها على الورق) ولخص بأبيات هذه القصائد ملامح عهد عبد الناصر. وكان من الطبيعي أن يتخلص نظام 23 يوليو من الشاعر هاشم الرفاعي سريعا وهو ما حدث بالفعل وأحست به نفس الشاعر الشفافة وعبرت عنه فيما سنرويه بإذن الله في مدونة قادمة.

وقد جاء الخلاص من حياة هاشم الرفاعي بطريقة ديكتاتورية مبتكرة تخفي وتظهر في الوقت أصابع النظام التي أرتكبها بدهاء وقسوة ونذالة، فقد كان الشاعر هاشم الرفاعي يقضي الإجازة الصيفية في قريته إنشاص، وكان في ذلك اليوم يمضي بعض الوقت في منتدى صغير يرتاده أهل القرية العاديون من مختلف الأعمار والاهتمامات ويمثل بالنسبة لهم متنفسا تقليديا، وفجأة نشبت مشادة مفتعلة لم يكن الشاعر هاشم الرفاعي نفسه طرفا فيها لكن السكين الغادر امتدت إليه بيد أحد الأشقياء فقضت عليه.

ولا يعجبن قارئ من خوف نظام بوليسي مستقر من شاعر مثل هاشم الرفاعي بعد أن انتشرت له قصائد دافقة بالحرارة والحماسة والفكر الحر السوي لخص فيها الشاعر الموهوب مبكرا كل ما أحسه تجاه سياسات عبد الناصر السلبية في ميادين القضاء والبرلمان ومجلس الدولة، وازدواج الهوى والبغي والغي وتقييد الحرية ونشر شريعة الغاب وسيادة الطغيان والظلم البين وهوان الحياة وخداع الرأي العام ....الخ عاقدا مقارنات ذكية بين عبد الناصر وبين فرعون والشيشكلي ونيرون والملك فاروق، ووصل بصياغته الشعرية إلى أن قال بيته المنطقي الشهير والذائع في لعنة عبد الناصر:

* يبدأ هاشم الرفاعي بالإشارة إلى ما شهده عهد جمال عبد الناصر من غياب القانون وسيادة شريعة الغاب:

جـلادَ مصـرَ ويا كبير بغاتـها / مهلا فـأيـامُ الـخـلاصِ دوانـي
مـن أيّ غاب قـد أتيتَ بِشِرعة / ما إنْ يُساس بها سوى الحيوان
وبـأي قـانون حكمت فلـم تـدع / شيئا لطاغية مـدى الأزمـان
أ برأيكم؟ والله يـشـهـد أنـــه / فـيـه الـهـوى والـغـيُّ يلتقيان

* ثم هو يتحدث عن أن الشعب المكبل قد أصبح كالزوج المخدوع لا يعلم الحقيقة إلا متأخرا:

أم ذاك رأيُ الشعب وهـو مكبّلٌ / فحياتـه والـمـوت يستـويـان

قد بات مثل الزوج مخدوعا متى / يعلـم فبـعـد تـحـدث الجـيـران

* وهو يذهب إلى القول بتشابه بد الناصر مع فرعون واستحقاقه الاقتران به لو كان عهده قد سبق بعثة النبي عليه الصلاة والسلام:

لو كان عهدُك قبل عـهـد محمدٍ / لَلُعِنْتَ يـا (فرخ) فرعونُ فـي الـقرآن

* ويمضي هاشم الرفاعي ببيان متألق يلخص خطوات الدكتاتورية المتتالية في عهد عبد الناصر:

فـي ظـل فـتـرة الانتـقـال بـنـا إلـى / دار الـبـقـاء ورحـمـة الـديـان
هجر القضاء الحر مجلس دولـةٍ / قـد نـام مـلء العـين والأجفـان
وأُضيع دستورُ البـلاد وحقها / فـي برلمـان ثـابـت الأركـان
نيرونُ لـو قـيست بكـم أفعالُه / سيكون ربَّ الخير والإحـسـان
يـا رُبَّ مغلوب ينـام علـى الأذى / لـكـنْ بمقلة سـاهـر يقـظان
لا يُغْرِيَنَّكُمُوا بـضـرب رقابـنـا / هـــذا الـسـكـونُ فـإنـه لأوان

* ثم هو يتوقع للعواصف أن تقلع هذا النظام معولا على ما يعرفه من حقائق الطبيعة في البراكين والقطر والسيل:

ومن العواصف ما يكون هبـوبُها / بعـد الـهـدوء وراحـة الـربـان
إن احتـدامَ النار في جوف الثرى / أمـر يثـيـرُ حفـيـظـةَ الـبـركـان
وتَـتَـابُعُ الـقـطـراتِ يَـنـزل بـعـده / سـيـلٌ يـلـيـه تـدفُّـقُ الـطوفـان
كـم من قـويٍّ ظالـم قـد ناله / من شعبه ما ليس في الحسبان

* وهو يبشر عبد الناصر بمصير أسلافه فيقول:

فـتّـشـتُ لـم أر مـسـتـبـدا نـاجـيـا / دمـعُ الضحايا فاحشُ الأثمان
عرف الشيشكلي قبلكم في سُورِيَا / مـاذا وراء الـصـمـت والإذعـان
فاروقُ لم يكن الخيالُ يـراه فـي / يـومِ الخروج يجرُّ فـي الأحـزان
مـا كـان فـيـنـا حـالـمٌ بـنـزولـه / عـن عـرشه فـي لحظة وثـوان
لـكـنـه ظـلـمُ الـطـغـاةِ شعوبَـهـا / جعلَ الحياة تـدبُّ فـي الجثمان